

منشورات
معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية

يصدرها
فؤاد سزكين

الفلسفة الإسلامية

٨٤

الهوامل والشوامل
لأبي حيان التوحيدي (توفي ٤١٤هـ/١٠٢٣م)
ومسكويه (توفي ٤٢١هـ/١٠٣٠م)

نشره
أحمد أمين
والسيد أحمد صقر

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية
في إطار جامعة فرانكفورت - جمهورية ألمانيا الاتحادية

الفلسفة الإسلامية

٨٤

الهوامل والشوامل

لأبي حيان التوحيدي (توفي ٤١٤هـ/١٠٢٣م)
ومسكويه (توفي ٤٢١هـ/١٠٣٠م)

نشره

أحمد أمين

والسيد أحمد صقر

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية

في إطار جامعة فرانكفورت - جمهورية ألمانيا الاتحادية

إعادة طبعة القاهرة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م

طبع في ١٠٠ نسخة

نشر بمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية
بفرانكفورت - جمهورية ألمانيا الاتحادية
طبع في مطبعة شتراوس، مولتباخ، ألمانيا الاتحادية

بمختار المؤلف والترجمة والنشر

الهُوَ أَفْكُ وَالشَّوْ أَفْكُ

لأبي حيان التوحيدي ومسكويه

نشره

السيد محمد صقر

أحمد أمين

القاهرة

مطبعة لجنة المؤلف والترجمة والنشر

١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب «الهوامل والشوامل» في الحقيقة كتابان لمؤلفين كبيرين ، أسئلة من أبي حيان التوحيدى سماها «الهوامل» ، وأجوبة من مسكويه سماها «الشوامل» ، ومعنى «الهوامل» الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى . و «الشوامل» الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها ، وقد استعار أبو حيان كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة التى تنتظر الجواب ، واستعمل مسكويه كلمة الشوامل فى الإجابات التى أجاب بها فضبطت هوامل أبي حيان .

وقد رأينا كتاب «الهوامل والشوامل» مهيلاً فى ثنايا الكتب فى مكتبة «أياصوفيا» بالآستانة لم يلق إليه أحد باله حتى المستشرقون ، وقد عثر عليه الأستاذ «محمد بن تاوويت الطنجى» أثناء بعثته من الجامعة العربية إلى الآستانة لتصوير الكتب القيمة ، فكان هذا الكتاب مما صورته منها .

فلما اطلعت عليه فى القاهرة بعد حضوره أدركت قيمته ، وأنه يكشف عن نواح هامة من النواحى المجهولة من أبي حيان ومسكويه ، فأثرت نشره لإكمال هذا النقص .

ولست أطيل على القارىء فى ترجمة أبي حيان التوحيدى ومسكويه ، فقد ترجم له ترجمة وافية الأستاذ المرحوم القزوينى فى رسالة له وضعها عن أبي حيان بالفارسية . وترجم له أيضاً ترجمة وافية الأستاذ «عبد الرازق محيى الدين» فى كتابه عن أبي حيان . وكتاب روضات الجنات ترجم لمسكويه ، وكذلك الأستاذ

« عبد العزيز عزت » في رسالته الجامعية عنه ، فلا نذكر هنا إلا بعض ما يدل هذا الكتاب على شخصيتهما .

فأولاً : يدل كتاب « الهوامل » على أن أبا حيان شخصية فلسفية طُلعة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها سواء كانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية . ففي كل ذلك يسأل ، وكثيراً ما تثير المسألة حولها جملة مسائل فيسأل عنها أيضاً ، حتى ليسأل في دقائق الأمور مثل البيت الخالي من السكان كيف يسرع إليه الخراب أكثر من البيت المسكون وكان المظنون العكس (ص ٢٦٠) .

ثانياً : إن أسلوبه في أسئلته أسلوب أدبي فني رائع يمتاز حتى عن أسلوب مسكويه الفلسفي الذي يحوطه الغموض .

وثالثاً : إن أبا حيان كثير الشكوى من الزمان والسكان ، والشكوى من المحتدين قد تثير في النفس عاطفة الحنو والرحمة ، وقد تثير عاطفة التقرز والاشمئزاز ، وهي في ذلك كله تختلف باختلاف الشكل وأساليب الاستجداء ، فقد يكون الشكل باعثاً على العطف والرحمة ، وقد يكون باعثاً على النفور ، وكذلك أسلوب الاستجداء فقد يكون أسلوباً رقيقاً يستخرج العطف ، وقد يكون أسلوباً جافاً مشوباً بالإدلال والتعاضم فيثير السخط ويبعث على الحرمان . ويظهر أن أبا حيان التوحيدى كان من القبيل الثاني ، يريد أن يستعلى على المسئول وأن يفهمه أن هذا حق لا إحسان فنفر من استجداهم منه . يظهر ذلك في نفور صاحب ابن عباد منه ، وحرمان الوزير ابن سعدان له ، وتقريع مسكويه له من الشكوى ، فقد شكى أبو حيان كثيراً في أكثر ما ألف ، شكاً في الإمتاع والمؤانسة لأبى الوفاء البوزنجاني ولابن سعدان ، وشكاً في الصداقة والصدق ، والمقاسبات ، والبصائر والذخائر وشكاً في الإشارات الإلهية ، ونقم على الناس كثيراً وعد نفسه غريباً بين المواطنين في خلقه وعلمه فأحرق كتبه حتى لا ينفعهم بها ، وشكاً كثيراً لمسكويه

فقرعه مسكويه على شكواه إذ قال له (ص ١، ٢) «قرأت مسائلك التي سألتني أجوبتها في رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم ، فانظر — حفظك الله — إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسلسل ، فلعمري أبيتك إنما تشكو إلى شاك ، وتبكي على باك ، ففي كل حلق شجى ، وفي كل عين قذى ، وكل أحد يلتبس من أخيه ما لا يجده أبداً عنده ، ولو كان حد الصديق ما رسمه الحكماء حين قالوا : صديقك آخر هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص ، فهيهات منه إنى لا أظن الأبلق العقوق ، والعنقاء المغرب والكبريت الأحمر أيسر مطلباً ، وأقرب وجوداً منه .

وبعد فإني أرى لك إذا أحببت معاشة الناس ومخالطتهم وآثرت لذة العمر وطيب الحياة أن تسامح أخاك ، وتغالط فيه نفسك ، حتى تغضى له عن كل حق لك ، وترى له عليك ما لا يراه لنفسه ، وأن تأخذ بأدب بشار فإنه نعم الأدب وموعظة النابغة فنعمت الموعظة . ولا تعود عشيرك وجليسك استماع شكواك فيأنس به ثم لا يشكيك ، ولا تكثر عليه من العتب فيألفه ثم لا يعتبك .

هذا إن لم يكن عنده لك أكثر مما عندك له ، ولم تهجم منه على صدر مُحش وغراً وقلب ممتلئ دِمناً ، فإنك حينئذ تهيج بلابله ، وتثير ضغائنه ، وتذكره ما تناساه كرمًا أو تكررًا ، وطواه حلامًا أو تحلمًا ، وهذا إن أنصفك فلم يتسرع إليك ، وصدقك فلم يتكذب عليك ، ومن عرف طبع الزمان وأهله ، وشيمة الدهر وبنيه لم يطمع في المحال ولم يتعرض للممتنع ، ولم ينتظر الصفو من معدن الكدر ، ولم يطلب النعيم في دار الحنة . وأنت إذا لم تجد من نفسك وهي أخص الأشياء بك مساعدة لك على رضاك ، ولا من أخلاط بدنك وهي أقرب الأمور إليك موافقة لهواك ، فكيف تلتبسها من غيرك وتطلبها من سواك ؟ استعذ بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملايسه ، واستعن بالله يعنك ،

واستكفه يكفك ، ولا قوة إلا به . هذا مبلغ ما رأيت من وعظك وحضرتي من نصحك ، وأرجو أن يوافق ما توخيته لك ورجوته فيك من القبول والامتنال ، إن شاء الله » .

رابعاً : يدل الكتاب على أن أبا حيان كان واسع الأفق متعدد النواحي ، وهو في ذلك أيضاً يفضل مسكويه ، إذ كان أبو حيان فيلسوفاً مع الفلاسفة ، ومتكلماً مع المتكلمين ، ولغوياً مع اللغويين ، ومتصوفاً مع المتصوفين ونحو ذلك ، يتسع أفقه حتى يشمل البحث في ذات الله وصفاته ، كما ورد في المسألة (١٦) (ص ٥٥) « وعلى ذكر الله تعالى ، يتم محيط العلم من المشار إليه باختلاف الإشارات والعبارات ؟ أهو شيء يلصق بالاعتقاد ؟ أم هو مطلق لفظ الاصطلاح ، أم هو إيماء إلى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف ؟ أم هو غير منسوب إلى شيء يعرفان ؟ فإن كان منعوفاً بنعت فقد حصره الناعت بالنعت . وإن كان غير منعوت فقد استباحه الجهل ، وزاحم المعدوم . ولا بد من الإثبات إذا استحال النفي ، وإذا وقف الإثبات والنفي على المثبت النافي فقد سبق إذن كل إثبات ونفي . فإن كان سابقاً لكل هذه الألفاظ وجميع هذه الأغراض فما نصيب العارف ؟ وما بغية ما ظفر به الموحّد ؟ .

هيهات هيهات ! اشتد اللغظ ، وكثر الغلط ، ورجع كل إلى الشطط ، وفات الله الفهم والفاهم ، والوهم والواهم ، وبقي مع الخلق علم مختلف فيه ، وجهل اصطلاح عليه ، وأمر قد تهرّم به ، ونهى قد ضجر منه ، وحاجة فائضة ، وحجة داحضة ، وقول مزوّق ، ولفظ منمق ، وعاجل معشوق ، وأجل معوّق ، وظاهر مُلَفَّق ، وباطن ممزّق . إلى الله الشكوى من غلبات الهوى ، وسطوات البلوى ، إنه رحيم ودود » .

وكان مسكويه أضيّق منه أفقاً ، كما كان أسوأ منه تعبيراً ، فليس له مجال كبير ، يحول فيه ويصول إلا في الفلسفة ، وحتى في الفلسفة لا يحسن الإلهيات

ولما وراء المادة ونحو ذلك ، وإنما يحسن الأخلاق إذ أُلّف فيها كتابه «تهذيب الأخلاق». والتدبير المنزلى ، والناحية العملية فى فلسفة أرسطو لا فى غيرها ، ويدل على ذلك قصوره فى عداها .

ويظهر أن سن أبى حيان ومسكويه متقارب إلا أن مسكويه يكبره قليلا ، ولكن كانت شهرة مسكويه بالعلم أكبر من شهرة أبى حيان . وكان أغنى لأنه كان خازن بيت المال ، وخازن الكتب لعضد الدولة وعلى حد تعييننا الحديث وزيراً للمالية ومديراً لمكتبته ، وهذا يدر عليه كثيراً ، فيظهر أن طمع أبى حيان فى علمه وماله قد باء بالفشل فوصفه بالبخل والغباء ، إذ قال فيه فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ١ / ٣٥ ، ٣٦ « وأما مسكويه ، فقفر بين أغنياء ، وعي بين أبناء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام (صفو الشرح لإيساغوجي) وقاطيغورياس من تصنيف صديقنا بالرّى . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبى الحسن العاصرى ، وصححه معى ، وهو الآن لائذ بابن الخمار ، وربما شاهد أبا سليمان ، وليس له فراغ ، ولكنه محس فى هذا الوقت للحسرة التى لحقته فيما فاتته من قبل . فقال : يا عجباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيمياءى الرّازى ، مملوك الهمة فى طلبه ، والحرص على إصابته ، مفتوناً بكتب أبى زكريا ، وجابر بن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائفة ، والحركات دائمة ، والقرص بروق تأتلق ، والأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العاصرى الرّى خمس سنين جمعة ، ودرس وأملى ، وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التّوانى الصاب والعلم ، ومضع بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع اللاملة

من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد فهو ذكى حسن الشعر ، نقى اللفظ ، وإن بقي ففساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ، وإتفاق زمانه ، وكد بدنه وقلبه في خدمة السلطان واحترافه في البخل بالدائق والقيراط والكسرة والخرقه ؛ نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وإيثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بُلى به ، والبلاء المصبوب بناصية من غلب عليه .

ولا ندرى كيف وصفه بالذكاء والعباء معاً ، إلا أن يكون يريد بوصفه بالذكاء في بعض مواضع ، وفي بعض فروع من العلم كالأخلاق والطب ، وغبائه في بعض المواضع كالإلهيات والمنطق ، وقد وافقه على ذلك ابن سينا فقد قال ابن سينا في بعض كتبه : إنه ألقى إليه جوزة كانت في يده وقال : ابن لى مساحة هذه بالشعيرات ، فألقى إليه ابن مسكويه أوراقاً وقال له : أصلح بهذه أخلاقك حتى أجيبك إلى بعض ما تريد . ونستخلص من هذه القصة تقصير مسكويه في باب الرياضة ، ومهارته في الأخلاق .

وقد قال ابن سينا أيضاً في بعض مسائله : إن هذه المسألة حاضرت بها أبا على مسكويه فاستعادها كرات ، وكان عسر الفهم ، وتركته ولم يفهمها على الوجه الصحيح .

وقد عمر الإثنان طويلاً ، فقد مات أبو حيان سنة ٤١٤ هـ عن نيف وتسعين سنة كما ذكر القزويني . وقال في روضات الجنات إن أبا على مسكويه عاش طويلاً حتى سُم الحياة ، ولم يعد يقدر على الحركة ، وفي بعض أشعاره إشارة إلى ذلك وقد مات سنة ٤٢١ هـ فإن كان مسكويه يكبر أبا حيان فإنما يكبره بسنين قلائل ، ولكن كان له من الجاه والغنى ما لفت إليه الأنظار أكثر من أبي حيان .

ويظهر أيضاً أنه لما لم يجد بغيته العلمية والمالية عند مسكويه اتجه إلى أبي سليمان المنطقي الذي يشاركه في البؤس ، ولكن يفوقه في العلم ، وكان اتصاله هذا بعد اتصاله بمسكويه بدليل ما جاء في كتاب المقايسات من أنه سأل أبا سليمان المنطقي عن مسألة فأجابه عنها إجابة غير التي ورد ذكرها في كتاب «الموامل والشوامل» ، وقد أعجب بعقلية أبي سليمان وعلمه أكثر جداً مما أعجبه مسكويه ، وقد لازمه طويلاً ووصفه بالعلم والذكاء في الامتناع والمؤانسة إذ يقول : ١ / ٣٣ « أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً ، وأقهرهم غوصاً ، وأصفاهم فكراً وأظفرهم بالدر وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنه ناشئة من العجبة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » .

واستفاد منه كثيراً . وكان أبو حيان وسيطاً له عند الوزير بن سعدان ، إذ منحه مائة دينار يقضى بها دينه في أجرة بيته كما ذكر في الإمتاع ١ / ٣١ .
والمقايسات أغلبها مما استفاده أبو حيان من أبي سليمان في مجالسه .

ويظهر أن أبا حيان قد وجه إلى مسكويه أسئلته كلها دفعة واحدة ، فأجاب مسكويه عنها إجابات متفرقة عن كل سؤال جواب ، وأن أبا حيان عنون كل سؤال بمسألة خلقية أو لغوية أو زجرية أو اختيارية ، ويعنى بالاختيارية ما كانت المسألة فيها من اختيار الشخص أن يفعله أو لا يفعله ، كأن يكون غنياً فيدخل أو يكرم ، وأن يكون غريباً فيغضب أو يحلم ، ويعنى بالزجرية المسائل التي يسأل فيها لزجر المرتكب عن ارتكابها ، وهكذا . وأن مسكويه قد تصرف في الأسئلة ، فأحياناً لا يثبتها كما وردت في الأصل ، بل أحياناً يشير إلى قسم منها ويترك القسم الآخر ، كما في المسألة الرابعة إذ يقول (ص ٢٦) « ثم اتبعت المسألة من تنقص الإنسان وذمه وتوبيخه ، ما أستغنى عن إثباته » .

وكما في المسألة (٣٥) ص ١٠٨ « وحكاية طويلة في إثر هذه المسألة عن شيخ

فاضل مقررط وجوابات له « وفي المسألة (٦٨) ص ١٨٠ » ثم حكيت حكايات ليس لها غناء في المسألة فلنشغل بالجواب .

وفي المسألة (٨٣) ص ٢٠١ » ثم حكيت الحكاية عن ابن إسماعيل في قصة الزعفراني .

وفي المسألة (٨٦) ص ٢٠٨ » إلى ما يتصل به من كلامك مما لم أحكه ، إذ كانت المسألة هي في قدر ما خرج من حكايتي .

بل أحياناً يحذف من السؤال مالا يستحسنه أو ما يعجز عن الإجابة عليه كما في ص ١٨٢ .

ويظهر أننا إذا أردنا أن نؤرخ كتب أبي حيان المتداولة بيننا وجدنا أولها الهوامل ، ولا ندري موضع كتاب الإشارات الإلهية من هذه الكتب إلا أننا نستنتج أنه ألفه متأخراً للنضج تعبيره ومعانيه ، وتعمقه في التصوف . ثم الإمتاع ، ثم الصداقة والصديق ، وفي غضون ذلك ألف البصائر والذخائر لأنه ذكر في مقدمته أنه بدأ به سنة ٣٧٥ وأتمه بعد خمسة عشر عاماً . ثم المقابسات لأنه ذكر الهوامل والشوامل في المقابسات ، وذكر أنه ألف لابن سعدان كتاب الإمتاع والمؤانسة سنة ٣٧٤ وألف الصداقة والصديق لابن سعدان أيام كان وزيراً وكانت مدة وزارته من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ هـ وأياً ما كان فالكتاب عظيم القيمة ، إذ يدل على نوع المشاكل التي كانت تشغل بال المفكرين في القرن الرابع الهجري في العراق ، كما تدل في كثير من الأحيان على الحالة الاجتماعية التي كان يحياها الناس .

وكثير من الأسئلة والأجوبة كان يحتاج إلى تعليقات طويلة ، أو إلى أجوبة غير التي أجيب بها طبقاً لعلم النفس وعلم الاجتماع كما وصلا إليه اليوم ، ولكن

أبيننا أن نفرق هذا الكتاب بالتعليقات ، وتركنا الحرية لكل قارىء في التعليق عليه حسبما يرى ، وعلى قدر علمه بهما .

ومن بديع أسئلته سؤاله رقم ١٥٣ عن المسألة الواحدة يكون فيها حكام من ققيمين : أحدهما يحلها والآخر يحرمها . ومن بديع الجواب أن المسألة الواحدة قد يختلف حكمها باختلاف الزمان والمكان والعادة ومصالح الناس . فقد تكون المسألة حلالا في زمان ومكان ، حراما في غيرها ؛ كالذى روى أن أبا حنيفة أفتى بأن من غصب ثوبا صبغه بالصبغ الأسود كان قد قلل قيمته ، بينما أفتى أبو يوسف بأن من صبغه صبغا أسود فقد زاد من قيمته . والسبب في ذلك أن أبا حنيفة أفتى في زمان لم يتخذ فيه العباسيون السواد شعاراً لهم . وأفتى أبو يوسف في زمان اتخذ فيه السواد شعاراً .

ومن بديع الجواب أيضاً أن الحكم يدور مع المصلحة ، فقد تكون المصلحة موجبة للحل أحيانا ، وقد تكون موجبة للحرمة أحيانا أخرى . ومن الأقوال الشائعة أن الضرورات تبيح المحظورات .

ويفهم من هذا أن الاجتهاد جائز ولو أدى إلى مخالفة النص .

ومن بديع الجواب ثالثاً ما قرره مسكويه من أن الاجتهاد قد يستحسن لذاته ، كضرب الكرة بالصولجان ، لا يضر فيه أن يخطئ الكرة ولا ينفع أن يصيبها . وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والإصابة لأن غرضه من أمره الرياضة بالحركة . وكذلك الحكيم إذا دفن في بركة دفيناً وأمر الناس بطلبه والبحث عنه ، وغرضه في ذلك جسد الباحثين وتنشيطهم ليعرف مقادير اجتهادهم ، فقد حصل المقصود وجدوا الدفين فيما بعد أم لم يجدوه . وكما يطلب من المتعلم حل نظريات أو تمرينات هندسية أو مسائل عويصة في التربية ، فإن الغرض يحدث من حلها ؛ لأن الغرض هو تمرين الذهن في حل هذه المشكلات وقد حصل .

وهو نظر جديد — فيما نعلم — في قيمة الاجتهاد .

وسؤال آخر وهو رقم ١٤٧ يدل على أن أبا حيان قد يُسأل من طالب آخر ، فيحيل السؤال على مسكويه بعد أن يجيب هو بنفسه ، ليرى هل يجيب مسكويه نفس الإجابة ، أو يجيب إجابة أخرى فيتعدد الجواب ، وفي ذلك مصلحة . وقد سأل أبا حيان سائل : هل تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ؟ فإن لم تخرج فكيف يعلل ذبح الذبائح ، وإيجاب الدية على العاقلة ؟ وقد أجاب مسكويه بأن من المحال أن تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ، لأنها وضعت لمصاحبة الناس ، فإن وجد ما يخالف العقل فذلك شيء ظاهري فقط ، وإذا بحث تبين أنه لا يخالف العقل ، نعم قد يخالف المألوف وما اعتاده الناس ، ولكن لا يخالف العقل ، فذبح الذبائح قد يكون فيه إضعاف لها ولكن فيه تقوية للإنسان وصحة له ، ووجوب الدية على العاقلة يزيد في الرباط بين القبيلة ، ويجعل كل إنسان مسؤولا عما يعمل به أحد أفراد قبيلته ، وليس ذلك مخالفا للعقل البشري بتاتا .

وقد دلنا السؤال والجواب على أن في عصر أبي حيان ومسكويه جماعة من المانوية يشيرون الشكوك بين العامة ليعدلوا بهم عن الدين الصحيح . وقد وقف أبو حيان ومسكويه في وجوههم وأمثالهم .

وقد أجاب مسكويه في هذا الكتاب عن أسئلة كانت الإجابات عليها متفقة مع ما عرف في زمانه . ولكن العلم تقدم ، وأصبح ما كان مجهولا له معلوما عندنا ، فقد أجاب إجابات من علم النفس تكون أحيانا غامضة ، ولكن تقدم هذا العلم تقدما كبيرا جعل من الممكن الإجابة عنها إجابات خيرا مما أجاب ؛ ولكن لم نرد أن نفرق الكتاب بمثل هذا . ونظير ذلك ما أجاب عنه في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية وغيرها . فالعلم اليوم خير من حال العلم في زمانه . خذ لذلك مثلا السؤال الذي سأله أبو حيان عن أن السحاب يبرق ويرعد ، فنرى

البرق قبل أن نسمع الرعد (ص ٣٦٥) وهي ملاحظة صحيحة ، وقد أجاب مسكويه
إجابة غلطاً ، وهي ظنه أن الهواء يستحيل إلى نور فتراه بمجرد ظهوره ، وأما الرعد
فينتقل حسب الموجات كأمواج البحر . مع أننا نعلم اليوم أن كلا من الرعد والبرق
ينتقل إلينا بواسطة موجات ، ولكن بعض الموجات أقصر من بعض ، كما نلاحظ
في موجات الإذاعة ، فبعضها قصير وبعضها طويل ، وبعضها سريع وبعضها
أسرع ، فكل من الرعد والبرق ينتقل إلينا عن طريق موجات ، ولكن أمواج
النور أسرع من موجات الصوت ، ولذلك يقولون إن الشمس تطلع ولكن
لا يصل إلينا ضوءها إلا بعد ثمان دقائق من طلوعها ، ودلت التجربة أن بعض
النجوم بعيد عنا جداً حتى لا يصل إلينا ضوءه إلا بعد مائة عام . وكانت هذه
الظاهرة إحدى الظواهر على مقياس البعد بيننا وبين نجم معين ، فتحسب كم من
الزمن وصل إلينا الضوء ، وما سرعة الضوء ، وعلى هاتين المقدمتين بنى حسابنا .
وكذلك الشأن فيما أجاب عنه في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ،
فقد كانت دائرة العلم في زمنه ضيقة ، فكانت تتسع كل يوم بالاستكشافات
الجديدة ، وخصوصاً في القرون الأخيرة ، حتى أصبحت إجابات مسكويه إجابات
تستخرج الضحك أحياناً ، وقد كان من الممكن أن نقف عند كل إجابة لنبين
ما يقوله العلم الحديث فيها ولكن منعت من ذلك موانع : أحدها أننا لم نرد أن
نفرق الكتاب الأصلي بإجاباتنا ، وثانيها أننا لا نستطيع أن ندعى العلم الواسع
بالنفس والاقتصاد والطبيعة والكيمياء كما فعل مسكويه ، فإن هذه العلوم اتسعت
حتى لا يستطيع أن ينوء بها إلا العصبية أولو القوة . وثالثها أننا لا نريد أن تقع في
الخطأ الذي وقع فيه مسكويه ، فسيقرأ الكتاب من بعدنا ، وسيكون العلم قد
تقدم أكثر مما عندنا ، فيضحك من إجاباتنا أحياناً كما نضحك من إجابة مسكويه ،
ولهذا نحترس حيث أهمل ، ونبتعد حيث أطلق .

ونلاحظ أن في المسألة رقم ١٧٥ سقطا إذ نرى في آخر الإجابة عليها كلاماً لا يتصل بموضوع السؤال . وتبلغ المسائل الساقطة نحو خمس مسائل ، فقد جاء في الصفحة الأولى التي فيها عنوان الكتاب « كتاب الهوامل والشوامل ويشتمل على مائة وثمانين مسألة ، الهوامل من سؤال أبي حيان على بن محمد الصوفي ، والشوامل ووضع الكتاب والأجوبة من تأليف أبي على أحمد بن يعقوب بن مسكويه » فإذا كنا قد بلينا بفقد هذه المسائل وأجوبتها فله الحمد على ظفرنا بما عداها . ومما هو جدير بالذكر أن الصفحة الأولى قد كتبت عليها عدة تملكات كثيرة بعضها غير مؤرخ وبعضها مؤرخ ، ولكن لم يتضح تاريخه ، والذي يعيننا منها جميعاً التملك الأول لأهميته التاريخية ونصه « ملكه من كرم الله تعالى محمد بن إبراهيم . . . لطف الله به وعفى عنه سنة ٤٤٠ » وهو يدلنا على قدم هذه النسخة .

فهذا الكتاب ، وكتاب المقابسات ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة صورة صادقة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر من بخل غنى ، وفقير عالم ، وغنى جهول ، وسلطان وزير ، وقتله من يد أمير ، وهكذا .

هذا إلى الطرف النادرة ، والنفاد المستملحة ، والقصص الممتع ، والرأى الحصيف ، ويشارك في هذا الأخير أيضاً كتاب « البصائر والذخائر » الذي سنتولى نشره قريباً إن شاء الله ، بالاشتراك مع الأستاذ « السيد أحمد صقر » .

والنسخة التي بأيدينا ، والتي نشرنا عنها هذا الكتاب هي فيما نعلم النسخة الوحيدة في العالم حتى لم يرد ذكرها في كتاب العلامة الفاحص (بروكلمان) ولم يزو لنا في كتابه القيم الواسع عن نسخ من هذا الكتاب ، فإذا وقع فيه بعض الأخطاء

وبعض الغموض فعذرنا أننا لم نعلم عن نسخة أخرى في مكاتب العالم يصح أن نرجع إليها ، وأن نصح ما ورد من الأخطاء في هذه النسخة .

وقد شاركني في إخراج هذا الكتاب الأستاذ « السيد أحمد صقر » بل كان نصيبه من تصحيح الكتاب والتعليق عليه أكثر مما لي . فله جزيل الشكر على ما قام به .

وإنا نشكر كل الشكر من دلنا على خطأ أخطأناه ، أو زلة زللناها ، والله للموفق للصواب .

أحمد أمين

القاهرة في يوم الاثنين } ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ
١ يناير سنة ١٩٥١ م

